

التفسير المختصر - سورة القصص (٢٨) - الدرس (١٠-١٨): تفسير الآيات ٣٢-٣٧ ، اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واصمم إليك جناحك من
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٥-٠٩-٠٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علما، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه، واجعلنا من يسْتَمِعُونَ القول فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ وَأَدْخِلُنَا بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ.

أيها الإخوة الكرام، لازلنا في قصة سيدنا موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، ووصلنا في سورة القصص من هذه القصة إلى قوله تعالى:

﴿إِسْلَكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاصْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلِئَهُ إِنْهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (٣٢)

[سورة القصص]

والليوم إن شاء الله سنتتناول قوله تعالى:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَّلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ (٣٣) وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلَهُ مَعِي رَدْعًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ (٣٤) قَالَ سَنَشِدُ عَصْدَكَ بِأَخِيكَ وَتَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَنَا يَصْلُوْنَ إِلَيْكُمَا بِأَيَّاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ (٣٥)

[سورة القصص]

هناك استثناءات كثيرة ؛ أو لا النبي بشر، يخاف كما يخاف البشر ويغضب كما يغضب البشر، وينسى كما ينسى البشر، ولو لا أنه بشر لما كان متوفقاً، فلأنه تجري عليه كل خصائص البشر كان صفة البشر، ولو أن النبي ملكاً لما كانت له حجة علينا، الكلمة التي نقولها له دائماً: أنت ملك، ولست تعاني من الشهوات التي أودعها الله فينا ولكن النبي بشر، وتتفوق على البشر فاصطفاه الله، قال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (٣٣)

[سورة آل عمران]

فالمؤمن إذا كان بالطريق ورأى النساء الكاسيات العاريات، ألا يشتهي أن ينظر ؟ يشتهي كغيره ولكنَّه غالب خوف الله على شهوته فغضَّ بصره، وإذا كان بين يديك مالٌ وغيره ألا تشتهي أن تأخذه ؟ تشتهي ولكنَّ خوف الله عز وجل غالب عليك فقلتَ إني أخاف الله رب العالمين فالمؤمن بشر، ولأنَّه بشر ويشتهي كما يشهي البشر ويختلف كما يخاف البشر، ويرجو كما يرجو البشر، وانتصر على شهوته وخاف مقام ربِّه، ونهى نفسه عن الهوى أكرمَهُ الله تعالى ورفعه، هذه

عدالة، وتكافئ فُرَصٌ، ومكان واحد يبدأ به السباق، فلو أن أحداً أُعطيتْ له أَجْوِبة الامتحان، فهل لهذه الدَّرَجَة والشَّهادَة قيمة؟ لا إطلاقاً.

قال تعالى:

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ (٦)

[سورة فصلت]

خاف النبي وقال:

((خفتُ وما خاف أحدٌ مثلي، وأوذيتُ وما أؤذي أحدٌ مثلي، ومضى عليَّ ثلاثون يوماً لم يدخل جَوْفِي إلا ما يُواريه إِبْطَا))

فالنبي يجوع ويعطش، ويشعر بوطأة الحر، وشدة البرد، ويختلف ويرجو، ولكنه انتصر على بشريته، فالإنسان فيه نوازع سُفلى ونوازع عُلياً، وحينما تنتصُل نوازعه العليا على نوازعه السُّفلى يرقي عند الله، وحينما تنتصُر غرائزه على مبادئه يسقط من عين الله ولأنه يسقط الإنسان من السماء إلى الأرض فتحطم أضلاعه أهون من أن يسقط من عين الله ! فالإنسان قد يحوز المال الوفير، وقد يتسلَّم أعلى المراتب، وقد يتلقَّ نجمة في الدنيا، أما إذا كان ساقطاً من عين الله فإن كلَّ هذا لا قيمة له، قال تعالى:

﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ (٢٥) ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ (٢٦)

[سورة الغاشية]

هذا أول استنباط.

قال تعالى:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَلَخَافُ أَنْ يَقُولُونَ﴾ (٣٣)

[سورة القصص]

هناك آيات أخرى تُوضِّحُ هذا الموقف، قال تعالى:

﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعْكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ (٤٦)

[سورة طه]

هذه الآية وحدها تملأ النفس طمأنينة، قال له: يا رسول الله، لو نظر أحدهم إلى موطن قَدَمه لرأينا ! قال له:

((يا أبا بكر، ما ظنك بأشين الله ثالثهما !!))

وبعض الروايات تروي أنه قال له: يا رسول الله لقد رأينا وقعَتْ عينُ أحدهم على عين أبي بكر، فقال يا أبا بكر:

﴿وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبَصِّرُونَ﴾ (١٩٨)

[سورة الأعراف]

وهذا يُطبقُ في كُلِّ وقت، فالله إن حفظك فإنَّ خصمك لا يرى شيئاً ولا يراك إطلاقاً، ولا يرى المُخالفَة لذا لا تقل هذه شطارةٌ مِنِّي !! بل هذا حفظ من الله تعالى، لأنَّ المؤمن كما قال بعض العلماء على حسب إيمانه وإخلاصِه واستقامتِه وورعَه له من بعض الآيات نصيب ألم يقل الله عز وجل لنبيه الكريم:

﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾

[سورة الطور]

للمؤمن الصادق الحذر والمستنق نصيبٌ من هذه الآية.
قال تعالى:

﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي﴾

[سورة القصص]

لو كان بالمجلس خمسة وكان أحدهم أَفْصَحُهم وأطلقهم لساناً، وقوى الحجَّة وواسع البيان وتكلَّم فلا تُقاطِعُه ودعاً يتكلَّم، إذْ هناك أشخاص لا بد لهم من أن يُثبِّتوا وجودَهم، يُقاطِعُ حديثَك، ويقول لك: ولماذا لا تتكلَّم أنا؟! فقط هو الذي يعرف الحديث والكلام، لذلك ورد في الأثر: إذا عزَّ أخوك فهُنْ سَيِّدُنا موسى نبِيٌّ ومُرْسَلٌ، لكن عنده عُقدةٌ بِلِسَانِهِ وأخوه هارون أَفْصَحُ منه، فإذا كان هدفكَ المَصْلَحةَ العَالَمَةَ فانت ترسِّل الرَّجُلَ المناسبَ في المكان المناسب، هذا إن كان هدفك نشر الدُّعْوَةِ وإيقاعُ الطرف الآخر، فإنَّك تختار أَفْضَلَ واحداً، وينبئُك العاليةَ تجعلُ أَعْمَالَ الآخرين في صحيفتك، فلو أنَّ أحَدَكم يعرِفَ مَنْ هو طليقُ اللِّسانِ وقوى الحجَّةِ، وتتكلَّمُ فاصنُعْ له، وأعْنُهُ، فقد حضرتُ مرَّةً حفلةً قال فيها أحدُ الخطباء: إنَّ لم يكن الإنسان داعيَةً ولم يكُنْ عنده قُدرةً على إقناع الناس فليدعُم داعيَةً يُعينُه، فكُلُّ مَنَا يُعينُ داعيَةً، ومُرشِّدًا وعالِمًا له مثلَ أَجْرِهِ، والله عز وجل يُقدِّرُ كُلَّ شيءٍ، قد تجدَ مَنْ يعمِلُ في الخفاء بِمَالِهِ وسلطةِهِ، وحتى طلاقة لسانِهِ، فالحياة أدوار، فلو أنَّ كلاً مِنَّا أَخَذَ دَوْرَةَ الحَقِيقِيَّ لكانَ كُلُّ مِنَا أَجْرٌ، ونحنُ الحياة نجَّدُ فيها تناقضٌ وتعاونٌ.

قال تعالى:

﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْتُهُ مَعِيَ رَدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ (٣٤)

قالَ سَنَشِدُ عَضْدُكَ بِأَخِيكَ

[سورة القصص]

لذلك الله في عَوْنَ العَبْدُ ما دام العَبْدُ في عَوْنَ أَخِيهِ، ويدَ الله مع الجماعة، وعليكم بالجماعة فإنَّ الشيطان مع الوَاحِدِ، وهو من الاتَّهَيْنِ أَبْعَدَ، وإنَّما يأكل الذَّبَابَ من الغنم القاصيَةَ ! فلو أنَّ كُلَّ مَنَا مَجِلسَ عِلْمٍ معنى هذا أنَّ له إخوان، وله أخ يُثبِّتُ بِعِلْمِهِ وورعَهِ يُسْتَشِيرُهُ ويأنسُ بِرأِيهِ، وأحياناً يشُكُّو همَّهُ لأخِيهِ لِيُصَبِّرَهُ لَا ليُشْمِتَ بِهِ، فالجماعة رحمة، والإنسان إذا كان يعيش لوحده أو بين جماعةٍ مُنْحرِفةٍ فالحياة تكون حينها جحِيمًا على حِلْمٍ، لكنَّ صُعوبَةَ الحياة مع أخِ مؤمنٍ تشُكُّو له همَّكَ، وتسْتَرُّشِدُهُ وتسْتَصِحُهُ، وتسْتَصرُّهُ وتسْتَعِينُهُ، وهكذا قال النبي:

((أتدرؤن ما حق الجار ؟ إذا استعن بك أعتنّه وإذا استنصرك نصرتّه، وإذا استقرضك أقرضتّه، وإذا أصابة خير أقرضته، وإن أصابته مصيبة عزيّته، ولا تستطع عليه بالبناء فتحجب عنه الريح إلا بإذنه، وإذا اشتريت فاكهة فأهداه لها منها، فإن لم تفعل فاذلّها سرّاً، ولا يخرج بها ولدك ليغتصب ولده، ولا تؤذيه بقتار قدرك إلا أن تعرف له منها))

هذا الجار العادي، فكيف بالجار المؤمن ؟ والجار المؤمن القريب ؟ لي صديق غاب عنّي في أي طابق هو ! طرقت الباب وسألت عنه فقيل لي: لا نعرفه ! وكذا في الطابق الذي بعده، فقال لي: لا نعرفه ! فقلت: والله هذه وصمة عارٍ لهذه البناء، جارٌ يسكن الطابق الثالث، والذي في الطابق الرابع لا يعرفه، والذي في الطابق الثاني لا يعرفه !! هكذا يُريدنا أعداؤنا أن نتفرق، ونحن نسمع من السلف الصالح أنه إن دخل الإنسان وكان معه ضيف يأتيه خمسون صحنا من الجيران، وكان الحي أسرةً واحدة، وإذا تخلف إنسانٌ عن صلاة الفجر يذهبون إليه لعله مريض.

أيها الإخوة، قال تعالى:

﴿قَالَ سَتَشْدُّ عَضْدُكَ بِأَخِيكَ﴾

[سورة القصص]

لذلك هناك أمرٌ إلهي، قال تعالى:

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبَرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَىِ الْإِثْمِ وَالْعُدُوانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ

العقاب﴾(٢)

[سورة المائدة]

تعاونوا لتشغيل الشباب وإنشاء مساكن لهم، قرأت خبراً باليمن زواج جماعي خمسيني وثلاثين وثلاثين شاباً وشابة ؛ جمعية خيرية تروج الشباب، هذا هو الذي يرضي الله عز وجل، قال تعالى:

﴿قَالَ سَتَشْدُّ عَضْدُكَ بِأَخِيكَ وَتَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَنَا يَصْلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيَّاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا

الغالبون﴾(٣٥)

[سورة القصص]

فإذا كان الله معك فمن عليك، إذا كان عليك فمن معك ؟ الأنبياء معصومون من الخطأ، ومعصومون من القتل، لأنّه بقتلهم تقتل الدّعوة، لذلك قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلَّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعُلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ

النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾(٦٧)

[سورة المائدة]

قال تعالى:

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِأَيَّاتِنَا بَيْنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرٌ وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي أَيَّاتِنَا

الْأُولَئِنَ﴾(٣٦)

[سورة القصص]

فَأَحَدُ الشَّبَابِ كَانَ يَنْتَفُ حَوْلَهُ النَّاسُ، وَقَدْ أَقْبَلُوا عَلَيْهِ إِقْبَالاً شَدِيداً فَأَصْحَابُ الْحَرْفَةِ مِنْ أَنْدَادِهِ غَاضِبُهُمْ هَذَا الْعَالَمُ وَإِقْبَالُ النَّاسِ عَلَيْهِ فَذَهَبَ أَحَدُهُمْ لِيُصَغِّرَهُ أَمَامَ التَّلَمِيذِ، فَلَمَّا أَقْبَلَ النَّاسُ حَوْلَهِ وَأَتَمْ دَرْسَهُ وَقَفَ هَذَا الْعَالَمُ وَقَالَ لِهَذَا الشَّابِ: يَا هَذَا، إِنَّ الَّذِي قَلْتَهُ مَا سَمِعْنَاهُ ! مَنْ أَينْ جِئْتَ بِهِ ؟ فَقَالَ لَهُ: أَوْ تَعْلَمْتَ الْعِلْمَ كُلُّهُ ؟ فَقَالَ: لَا، فَقَالَ: كَمْ تَعْلَمْتَ مِنَ الْعِلْمِ ؟ فَقَالَ: شَطَرُهُ ! فَقَالَ هَذَا الشَّابُ، وَهَذَا مِنَ الشَّطَرِ الَّذِي لَا تَعْرِفُهُ، دَائِمًا حُجَّةً أَعْدَاءِ الدِّينِ ؛ مَا سَمِعْنَا بِهِذَا ! دَائِمًا المُنْتَرِفِ يَحْتَجُّ بِالْتَّقَالِيدِ وَالْعَادَاتِ، وَالْتَّقَالِيدِ إِذَا كَانَتْ بِالْيَةِ، وَالْعَادَاتِ إِنْ كَانَتْ مُصَادِمَةً لِلشَّرْعِ فَإِنَّا نَضْعُهَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا.

قال تعالى:

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرٌ وَمَا سَمِعْنَا بِهِذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ (٣٦) وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٣٧)

[سورة التصوير]

والحمد لله رب العالمين